طرة على هامش الصحافة

خدمة للصالح العام واستنهاضا لهمم قول كتاب العصر لعلهم يحذون حذونا ويقومون بمثل ما قمنا به من نشر الوية العلم وبث الفضيلة والحث على السير في طريق الفلاح والسبق في مضمار النجاح وعلى طرح التنابذ والتكاسل والتعامي عن الواجب والتغافل رأيت من الواجب أن احرر من وقت لآخر في غير ما موضوع كلمات على صفحات هذه الجريدة (مجلة المغرب) كلما دعتني القريحة ورأيت مناسبة لذلك وان كنت لست من فرسان هذا الميدان ولا ممن يشار اليهم فيه ببنان اذ من المعلوم بين بني قومي وجلدتي ان الكتابة ليست حرفتي .

ولما كانت هذه الجريدة باكورة اصلاح جديد ظهر في تاريخ المغرب وكانت في انبثاق نور فجرها رأيت من المناسب أن اتحف القراء واحدثهم بشيء يناسب موضوع هذا الفن وهو تاريخ نشأته وسقطته ونهضته الى ان حالفه الصديق الموافي وصالحه ثم صالحه العدو المتجافي ليعلم القراء ان هذا الفن ليس وليد يوم وليلة ولا انقادت له الآراء وخضعت له الرقاب بحكم الاتفاق والصدفة وانما هو نتيجة جهاد ابطال طال ازمنة واحقابا حتى رأى الناس قولهم حقا ورأيهم صوابا ملخصا جل ذلك من دائرتي المعارف للشيخ فريد وجدي المصري والمعلم بطرس البستاني.

الامم الاورباوية الحاضرة ترجع باصل هذه الجرائد الى دولة الرومان اذ يذكرون ان دولة الرومان لما كانت تريد ان تصدر امرا عاليا او خبرا هاما تعمد الى صحف تكتب فيها ما تريد وتلصق بعضها على الجدرات وتوزع بعضها على الباعة والمارين فيعم ما فيها بهذه الواسطة سائر الطبقات وكانت هذه الجرائد تسمى بالحوادث اليومية الرومانية وتتضمن اخبارا رسمية عامة غير اننا لم نقف على اول من ابتكرها من الملوك ولا اول من ارتآها من الساسة ولا الزمان الذي انقرضت فيه وهوى فيه نجمها وسقط بيد انه يظهر ان امرها تنوسي ومحي من لوحة الوجود الى ان نهضت اوربا نهضتها الحديثة واتجهت افكارها وميولها الى كل عمل مفيد وكثرت ضروريا تها وحاجياتها والتحم الفرد من كل امة بمجموعها ثم مجموع كل امة بمجموع الاخرى وتبودلت المصالح فيما بينها فرأت فئة من متنوري الافكار اذ ذاك تبعا لهذه النهضة وتبعا لهذا الالتحام والاشتباك ان يشترك الفرد والمجموع في علم ما هو ضروري او حاجي للحياة الراهنة من الشئون الهامة والاخبار المفيدة العامة مما يحدو الجماعة والفرد على السير في طريق التقدم والرقي والعروج بهم في معارج الكمال وينبه الافكار ويوقظ الهمم ويبعث النفوس على الاخذ بصالحها وصالح امتها وجيرانها بل وصالح العالم اجمع فلم يروا بدا من تقليد دولة الرومان فيما كانت عليه من طريق النشر والبلاغ فصارت تصدر غالب الامم منها من وقت لآخر اهم اخبارها وشئونها وكان ابتداء ذلك حوالي القرن الخامس عشر المسيحي وابتداء

الذي بعده وكان من اول من سارع من الامم الى هذا الامر العظيم في تاريخ حياة البشر امة فرنسا فانها اول ماصدرت من ذلك جريدة ميركور دوفرانس سنة ١٦٠٥ ثم جريدة الغازيت سنة ١٦١٣.

وهاانا اذكر اوليات الجرائد لدى كثير من الامم الراقية فاما انكلترا فاول تاريخ نعامه لجرائدها سنة ١٦٥٧ اذ في ذلك التاريخ اصدرت جريدة عنيت بالاعلانات واخبار السفر البحري ثم تلتها جريدة تسمى بيشرماركوري سنة ١٦٧٥. وان كان الذي يظهر من نفس من كتب في هذا الموضوع انها كانت لها جرائد قبل ذلك واما ايطاليا فاقدم جرائدها غازت البندقية التي انشئت في القرن السادس عشر قال المعلم بطرس في دائرة معارفه وقد حفظت نسخة منها طبعت سنة ١٥٥٠ في متحف انكلترا واما جرمانيا فاول جريدة انشئت فيها سنة ١٤٩٤ واما اصبانيا فاول جريدة فيها جريدة ادياريودي مادريد انشئت اواسط القرن الثامن عشر واما المجر فاول جرائدها نشرت عام ١٧٢١ واما تركيا فاول جريدة نشرت فيها سنة ١٧٩٥ ولاكن كانت باللسان الفرنسوي واما روسيا فاول جريدة فيها الجريدة التي انشأها القيصر بطرس الاكبر في موسكو سنة ١٧٠٣ واما اسوج فاقدم جرائدها نشرت سنة ١٦٢٣ واما نرويج فاقدم جرائدها سنة ١٧٦٣ واما الدانيمارك فاقدم جرائدها سنة ١٧٤٩ لاكن كانت باللسان الجرماني واقدم جريدة وجدت بآسية كانت بالصين بيد الحكومة واقدم جريدة وجدت بالهند بينغالة سنة ١٧٩٥ واما اماريكا فاول جريدة انشئت فيها ببوسطون سنة ١٦٩٠.

غير ان هذه الجرائد لم يكن لها من المواد والضبط والنظام والنفوذ والسيطرة على الرأي العام ما للجرائد الحالية قال الشيخ فريد وجدي في دائرته وقبل ان تصل الجرائد لهذه المكانة اجتازت ادوار الطفولية الاولى فمن وريقات صغيرة يتناقلها الواحد عن الاخر بغير اهتمام لاتحتوي الا على اقوال تافهة الى صحف دورية فيها شيء من النظام والفائدة الى جرائد كبرى ذات عدة صحف شاملة للسياسة والاخبار العامة والخاصة والشئون الاقتصادية والمسائل الاجتماعية وغير ذالك مما يهتم به الجمهور ويرتاح للاطلاع عليه. وانما اكتسبت الجرائد هذه الروح وتلك المقومات خلال القرن التاسع عشر كما سياتي بيد انه لاينكر انه كان لها في قرونها الاولى ضلع جيد وحظ وافر في تهذيب الامم وايقاظ الافكار والنهوض بالحالة العلمية والادبية والاجتماعية والاقتصادية نهوضا يناسب ابتداء نهضات الامم وقيامها عن بكرة ابيها.

فهذا مايتعلق بنشأة الجرائد بغير اللسان العربي واما باللسان العربي فلم نر من ذكر لها اوليات قبل القرن التاسع عشر المسيحي وغاية ما وقفنا عليه مافي دائرة وجدي نقلا عن جريدة المؤيد التي كانت تصدر بالقاهرة ناقلة عن مجلة العالم الاسلامي الفرنساوية اذ قالت كان الحجر الاساسي للصحافة الاسلامية هو الذي القاه ساكن الجنان محمد علي باشا بانشاء جريدة رسمية لحكومته سنة ١٨٢٨ ميلادية وكان علماء القاهرة الشرعيون لايزالون يعترضون على استعمال حبر المطابع بانها تتركب من مواد تنافي الطهارة ولاكن اعتراضهم هذا لم يمنع من صدور العدد الاول من جريدة الوقائع المصرية الرسمية ومن توالي صدور الاعداد التالية الى الآن.

اومأنا فيما سبق الى ما كانت عليه الجرائد في اولياتها من الضعف مادياً وادبياً ولا يستغرب القارئ هذا الايماء مع ما يشاهده اليوم من قوة الجرائد وسلطانها وانحياز جماهير كل امة من اعلى طبقة الى ادناها اليها حتى انك لا تجد ملكا ولا رئيس جمهورية ولا وزيراً ولا مديراً ولا رئيس ولاية اوقسم ولا فلاحاً ولا تاجراً ولا صانعاً الا وله اشتراك في واحدة او عدد كل على قدر نسبته وحيثيته بل لاتجد شخصاً ذا حيثية مهمة في امته ولاحزباً من الاحزاب ولا شركة من الشركات ذات البال الا وله جريدة تعضده وتنشر ءاراءه وافكاره وتقويها وتدفع الشبه عنها والا فلا تقوم لها قائمه في الوسط الذي هو فيه فان سنة النشوء والارتقاء قضت بان يكون للكائنات اوليات ومبادي ثم عروج في معارج الكمال والرقي الى بلوغ الغايات ومنتهى النهايات سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تحويلا كالقمر يبدو هلالا ثم يصير يتزايد الى ان يكمل بدره ويتم نوره وكالنبات يبدو بقدر ما يدركه البصر ثم لايزال يتزايد الى ان يبلغ قواه ويدرك اقصى مداه بل وفي انفسكم افلا تبصرون الم يكن اصل استعمارنا لهذا الكوكب الارضي ذكراً وانثى ثم لم يزل بذر هذا الاصل ينمو وينتشر على وجه البسيطة الى ان استفحل عمرانه وكمل نقصانه الم يكن اصل كل فرد منا نطفة من مني تمنى ثم كان علقة الى آخر اطواره ونهاية ادواره. الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير.

ثم ان الفضل كل الفضل في حفظ الجرائد في وجودها على ضعفها في مباديها وقلة موادها ومواردها ومصادرها وضعف الثقة بها بل وكثرة الحواجز والعوارض المنازعة في بقائها راجع لفئة قليلة من اهل الاصلاح اذ كانوا على الضد من الرأي العام يرون نتائج الجرائد عن بعد ويلمسون حقائق ما يخبؤه الدهر لها من القوة والسلطان وامتلاك ناصية الرأي العام لمس الاجسام للاجسام لادراك الاحلام صور الاشياء في عالم الخيال والاوهام. فكانوا يرون فيها من الفائدة والصالح العام ماشاهده اهل هذا العصر فثابروا على العمل بجد في احيائها وهجروا كل ما يستطاب ويلذ في الذب عنها والذود عن حياضها الى ان قوي ساعدها وكثر رائدها واقبلت عليها الامم اقبال الضماء على الماء والجياع على الطعام واستولت على وظيفتها الطبيعية المنتظرة لها.

بيد انه لما استفحل امرها وانتشرت في اقطار الارض انتشار الشمس على الارجاء وعمت ضواحيها عموم النبات على وجه الخضراء وخاف اهل الحل والعقد من كل امة ان تطير شرارة من جمر لظاها فتحرق العالم وتجعله حصيداً قيدوها بقيود واوضاع تناسب حال امهم من انخفاضهم وارتقائهم ولولا هذه القيود والاوضاع لاستحال صلاحها الى فساد وحكمتها الى ضلال وعناد والواحد بالشخص له جهتان بل جهات.

وحيث قلنا ان الجرائد انتشرت في العالم انتشار الشمس على الارجاء فهاك انموذجاً من ذلك الانتشار قال الشيخ فريد اصبحت اليوم الجرائد حاجة من حاجات الامم لاعتبارات كثيرة ولذلك اخذت حظاً من الانتشار لم يكن يحلم ببعضه مؤسسوها الاولون انفسهم فقد دل الاحصاء ان في العالم كله سبعين الف جريدة يومية يبلغ مجموع ما ينتشر من نسخها في السنة عشرة آلاف مليون وثلاثمائة

وخمسة وثلاثين مليوناً عدد ثمنها كلها يقرب من الفي مليون (اي مليارين) واربعمائة وثمانين مليوناً من الفرنك فبفرنسا جريدة تسمى (لوبتي جورنال) تطبع في كل يوم ستة ملايين نسخة وهي الجريدة المحبوبة من العمال والفلاحين وجميع اخبارها تلغرافية وقيمة الاعلان الصغير فيها جنيهان عن المرة الواحدة ويلي هذه الجريدة في الانتشار جريدة المانان فانها تصدر يومياً نحو تسعمائة الف نسخة ولا يقل عدد جرائد فرنسا بين يومية واسبوعية وغيرها عن ستة آلاف وخمسمائة جريدة وفي انجلترا التيمس تصدر نحو مليون نسخة في اليوم ويوازيه عدد عديد من الجرائد كالدايلي تلغراف والدايلي تيوز والدايلي غرافيك والدايلي مايل و مانشيشتر جورديان وغيرها وفي اماركا تعطى اهمية كبرى للجرائد فان لجريدة النيورك هرالد ادارة مؤلفة من ستة وعشرين طبقة تكلفت ملايين عديدة من الريالات ثم قال بعد ذلك بكلام كثير وما اشرف عام ١٩٠٤ على الزوال حتى بلغت الصحف العربية في القطر المصري مائة وسبع عشرة صحيفة ثم قال بعد بكثير ايضاً كانت اهمية الحركة الصحافية علمياً واجتماعياً في وسط القرن التاسع عشر ممثلة بخمسين جريدة النصف منها كان يصدر في البلاد الهندية فبعد خمس وعشرين سنة اي في سنة ١٨٧٥ بلغ عدد الصحف الاسلامية خارج البلاد الهندية مائة صحيفة ولا كن الحركة الصحافية صارت فيما بعد حثيثة فانه لم تمل شمس القرن التاسع عشر للافول حتى بلغ عدد الصحف الاسلامية عدا المجلات العلمية والادبية والفقهية والصناعية مائة وخمسين جريدة بين يومية واسبوعية يقرؤها المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ولا كن هذا العدد الذي بلغت اليه الصحف في سنة ١٩٠٠ قد تجاوز ثلاثة اضعافه في مدة عشرة اعوام حيث يوجد الآن اربعمائة صحيفة سياسية على الاقل تعبر عن الرأي العام الاسلامي على ان هذا العدد لا يزال قليلا بالنسبة للشعوب الاسلامية وهي عديدة متوزعة على بلاد مترامية الاطراف الى اقصى مدى ولذا تدل بوادر الحركة على ان عددها لابد ان يبلغ الى الف في زمن قصير والى اكثر منه بعده ومن الحقائق المشاهدة انه مع مضي السنوات وتوالي الشهور تدنو الامم الاسلامية في القرن العشرين شيئاً فشيئا من الاوان الذي تعمل فيه بمقتضى المبادي التي تضعها العقول المفكرة في صحف قد اختلفت انواعها وتعددت نزعاتها باختلاف المدنيات الاسلامية ولا كن تضمها في دائرة واحدة كلمة المجموع الاسلامي.

هذا واني لارجو من صميم الفؤاد لهذه المجلة تقدماً سريعاً وسيراً حثيثاً في عالم الصحافة وفي سبيل نهضة المغرب الاقصى العلمية والادبية والاجتماعية والاقتصادية بنشر مبادئ العلم الصحيح وبث الدعاية اليه نشراً وبثاً يناسبان روح النهضة العصرية واعتقد اعتقاداً جازماً راسخاً ان هذا ليس شعوري ورجاءي وحدي وانما هو رجاء وشعور الامة المغربية كافة حقق الله الرجاء.

ابوبكر بن الطاهر زنيبر

تنبيه — نلاحظ فيما نقله الكاتب الفاضل عن غيره مبالغة واضحة في شأن ما تخرجه جريدة (البوتي جورنال) الفرنساوية من الاعداد، كما ان مراتب بعض الجرائد ونزعاتها المذكورة هنا قد تغيرت منذ التاريخ الذي كتب فيه وجدي دائرة المعارف. (قلم التحرير)